# نص الغدير

## بحث في دلالته على ضوء الاجتماع الديني والسياسي وفلسفة التاريخ

إن نص الغدير* هو من أهم النصوص التي يستند إليها المسلمون الشيعة في اثبات خلافة الامام علي بن أبي طالب (ع) لرسول الله(ص)، حيث ورد في مصنفاتهم أن رسول الله(ص) وأثناء رجوعه من حجة الوداع، نزلت عليه في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة آية << يا أيها الرسول بلغ ما انزل إليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس>>[1] فنزل غدير خم، حيث كان يتشعب منه طريق المدينة ومصر والشام، وانتظر هناك حتى لحقه من تأخر عنه، و حبس من كان معه وأرجع من تقدم عليه، وبعد أن نودي بالصلاة(صلاة الظهر) صلى بالناس، وكان يوماً شديد الحر، فلما انتهى من صلاته، قام خطيباً وسط القوم على أقتاب الإبل، ليسمع الجميع مقالته، فحمد الله وأثنى عليه، فقال:"الحمدلله، ونستعينه، ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، الذي لا هادي لمن أضل، ولا مضل لمن هدى، واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وبعد:أيها الناس أوشك أن أدعى فأجيب، وإني مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟"

قالوا: نشهد أنك بلّغت ونصحت، فجزاك الله خيراً.

قال: أليس تشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النار حق؟

قالوا: بلى نشهد ذلك.

قال: اللهم اشهد.

ثم قال:ألا تسمعون؟

قالوا: نعم.

قال: يا أيها الناس، إني فرط، وأنتم واردون علي الحوض... وإني سائلكم عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما.

فنادى منادٍ: وما الثقلان يا رسول الله؟

قال: كتاب الله، طرف بيد الله، وطرف بأيديكم، فاستمسكوا به، لا تضلوا ولا تبدلوا؛ وعترتي أهل

---

* لم نستعمل كلمة النص في هذا البحث بحسب اصطلاحه الأصولي، أي في قبال الظاهر، بل بحسب ما هو مصطلح عليه في اللغة الفكرية والأكاديمية.

1- المائدة : الآية 67.

بيتي؛ وقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، سألت ذلك ربي، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلموهما فهم أعلم منكم.

ثم قال: ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: ألستم تعلمون أني أولى بكل مؤمنٍ من نفسه؟

قالوا: بلى يا رسول الله.

ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب بصبعيه فرفعها، حتى نظر الناس إلى بياض إبطيهما؛ ثم قال: يا أيها الناس، الله مولاي وأنا مولاكم؛ فمن كنت مولاه، فهذا علي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأحب من أحبه، وابغض من ابغضه*.

ثم قال: اللهم اشهد.

ثم لم يتفرقا [الرسول(ص) وعلي(ع)] حتى نزلت الآية :<<اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً>>[1]. فقال رسول الله (ص) : الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضا الرب برسالتي والولاية لعلي.

ثم أخذ الناس يهنئون علياً قائلين :"بخٍ بخٍ لك يا بن أبي طالب، أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة"[2].

هذا ويتفق المسلمون السنة والشيعة على حدوث واقعة الغدير، وعلى أصل ذلك النص، لكنهم يختلفون في بعض ألفاظه، كما يختلفون أيضاً في دلالته، أنه يدل على الحب وما سواه، أم أنه يدل على خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع)، وهو ما يذهب إليه شيعة أهل البيت (ع) في تفسيرهم لنص الغدير ودلالته.

إن ما نريد تقديمه في هذا البحث، هو محاولة فهم لنص الغدير ودلالته؛ لكن هذه المرة متموضعاً في الاجتماع الديني والسياسي، الذي كان قائماً آنذاك، وعلى ضوء مجريات التاريخ الاسلامي وحركته، حيث تؤخذ كل تلك الحيثيات بمثابة قرائن، تسهم إلى حدٍ بعيد في تحديد المعنى

---

* في نص آخر: " وانصر من نصره واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب"

1- المائدة: الآية3.

2- العسكري، السيد مرتضى، معالم المدرستين،الدار العالمية، بيروت 1993م، ط5، مج 1، صص، 493-497؛ السبحاني الشيخ جعفر، الإلهيات، قم، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، ط3، مج4، صص82-85.

الذي أراده رسول الله (ص) من ذلك النص و دلالته[1].

لا نريد القول هنا إن الرسول (ص) قد قدم نصاً مجملاً أو ملتبساً أو مبهماً... إنما نريد الإشارة إلى أن وقوع الاختلاف بالمستوى الذي حصل في نص الغدير، إنما يدل على مدى خطورة هذا النص وحساسيته من جهة، ومدى استفحال البعد السياسي وتغوّله على دلالة النصوص ذات الصلة من جهة أخرى. حيث إن الاختلاف المتمادي في دلالة النص لم يكن نتيجة لغموضه أو إجماله، إنما كان نتيجة لجملة من العوامل، و منها تلك العوامل السياسية التي ترتبط بالنزوع إلى السلطة والرئاسة، والتي كانت متمثلة آنذاك بخلافة رسول الله (ص).

من هنا تحمل هذه المحاولة مشروعيتها المنهجية، كونها تعالج واحداً من أهم الموضوعات وأخطرها على المستوى الديني والاسلامي، محاولة تعتمد منهجية تاريخانية في تكوين دلالة النص، لا بمعنى حبس الدلالة في مقطع تاريخي دون آخر، بل بمعنى النظر إلى النص متموضعاً في بيئته التاريخية، بما تختزنه تلك البيئة من أبعاد وظروف اجتماعية وسياسية وثقافية... تسهم إلى حدً بعيد في فهم دلالة النص، وحمايته من العوامل ذات الخلفية السياسية، التي تريد أن تمارس إسقاطاً معرفياً على النص، وأن تعزله عن تلك البيئة، بما يسهل لها ممارسة أكثر من تحوير معرفي، يحرّف النص عن دلالته الصحيحة ومعناه الحق.

وعليه سوف أبحث في بيئة النص ومتعلقاته، من شخصية المتكلم؛ إلى شخصية موضوع النص؛ إلى ظروف النص، والتي تشمل قرب رحيل النبي (ص)، وبيئة الاجتماع الإسلامي، ومستقبل الأمة، وحداثة التجربة الاسلامية، والآلية المجهولة لانتقال السلطة؛ إلى حيثيات الواقعة؛ وصولاً إلى حركة التاريخ وأخبار الملاحم؛ لأختم بتلخيص واستنتاج، يعمد إلى ربط جميع متعلقات بيئة الاجتماع السياسي والديني بنص الغدير وحيثياته ومراسمه، لننتهي إلى استخلاص بعض النتائج والإجابات على بعض من الأسئلة التي قد تطرح.

لكن بداية سوف أشير إلى جملة من الاحتمالات، التي قد تذكر في معرض النقاش في دلالة نص الغدير، وتحديد تلك الدّلالة:

**أ. نص الغدير واحتمالات الدلالة:**

---

1- هنا لا نريد البحث في الجانب السندي للحديث، كما سوف نتجنب إلى حدٍ بعيد الغوص في التحليل اللغوي لنص الغدير، ومناقشة الآراء المختلفة في معناه ودلالته؛ للمزيد يرجع إلى موسوعة الغدير للعلامة الأميني.

في معرض البحث في دلالة نص الغدير، تذكر العديد من الاحتمالات والتي منها:

1. انه يدل على الإمامة السياسية للإمام علي (ع)، أما دلالته على الإمامة الدينية، فمن حيث أنه لم يكن آنذاك من فصل بين الإمامتين الدينية والسياسية.
2. انه يدل على الإمامتين الدينية والسياسية، من ناحية الدلالة اللفظية للنص.
3. انه يدل على الإمامة الدينية، ولا يدل على الإمامة السياسية.
4. انه لا يدل على الإمامة، سواء منها الدينية أو السياسية، وإنما يدل على معانٍ أخرى، من قبيل الحب وغيره.

نعم، لا فرق من حيث النتيجة بين الاحتمال الأول والثاني، إلا من حيث كيفية الدلالة لا أكثر.

**ب. بيئة النص ومتعلقاته:**

سوف نحاول هنا بيان جميع متعلقات نص الغدير، لنرى مشهدية النص مكتملة بجميع عناصرها، وعندها سوف يكون أيسر لنا أن نرى دلالته أكثر وضوحاً، وأبعد عن الالتباسات التي تثيرها الإشكالات المختلفة؛ أما أهم تلك المتعلقات فهي ما يلي:

1. شخصية المتكلم: بمعنى أن من قدم هذا النص هل هو مجرد رسول، أم أنه رسول وقائد في الآن نفسه؛ هل هو مجرد مبلغ للرسالة الإلهية، أم أنه مبلغ وحاكم للدولة في الآن نفسه؟

الفارق بين الأمرين أن المتكلم يعبر عن المعاني والدلالات من فضاء مخزونه المعرفي، تبعاً لمهامه ووظائفه، بحيث أن تلك الدلالات والمعاني، لا تخرج عن حدود ذلك المخزون، وتلك الوظائف. فإذا ما علمنا أن شخصية المتكلم هي في إطار تبليغ الرسالة، وأنه مجرد رسول؛ فهو ما سوف ينعكس على دلالة الكلام الذي يبيّن. أما إذا كان قائداً وحاكماً للدولة، بالإضافة إلى كونه رسولاً؛ فلا نستطيع عندها أن نعزل هذه الحيثية في محاولة تكوين دلالة النص، وخصوصاً إذا ما كانت اللحظة السياسية والتاريخية التي صدر فيها النص هي لحظة حرجة، تتطلب منه بياناً، وتحديد موقف ،من قضية غاية في الأهمية والخطورة.

ولا يخفى على أحد أن الرسول محمد (ص) قد كان قائداً للأمة، وحاكماً للدولة، وبالتالي لا نستطيع النظر إلى النصوص التي صدرت عنه، بمعزل عن هذا الجانب في شخصيته، والذي أخذ مدى بعيداً في حياة الرسول(ص) والنموذج الذي قدَّم.

2. شخصية موضوع النص: أي من تحدث حوله النص، وهو الإمام علي بن أبي طالب (ع)، ليس لأنه ابن عم الرسول (ص)، أو زوج ابنته، أو أول من آمن به، بل لأنه أهم من تربى على يديه، حيث قام الرّسول(ص) بإعداده إعداداً خاصّاً، ولأن الرسول(ص) نفسه قد قال فيه من النعوت والصفات، ما يظهر أنه كان بنظره المرشح الأول للخلافة وقيادة الدولة والأمة بعده، حيث لا نستطيع أن نفهم هذه الصفات والنعوت بمعزل عن أبعادها الاجتماعية والسياسية، أي أن الرسول (ص) لم يكن في مقام المدح للإمام علي (ع) لمجرد المدح، وإنما لما يترتب على هذا المدح من لوازم، سواء على المستوى الديني أو السياسي وغيره.

وإن حاولت بعض الآراء[1] أن تعزل أرجحية تلك الصفات والنعوت عن لوازمها، حيث ذهبت إلى الإعتراف بأن الإمام علي (ع) هو أفضل الخلق بعد الرسول (ص)، لكن ليس من الضروري أن يكون الخليفة بعده! والجواب البديهي هو أنه إذا كان أفضل الناس بعد الرسول (ص) علماً وخلقاً وحكمةً وقدرةً على الإدارة والسياسة والحكم، فكيف لا يكون الخليفة بعده؟

أيضاً عندما نأتي إلى الواقع العملي لسياسات الرسول (ص) وأدائه، نجد بأن الإمام علي (ع) قد كان ثقته ومعتمده في الحروب والمعارك، والقضايا الكبرى، والتحديات العظمى، التي كانت تمر بها "التجربة الإسلامية الوليدة" آنذاك، مما يعطي أكثر من إشارة حول من كان المؤهل لقيادة هذه التجربة والمحافظة على النموذج الحقّ بعده، بل إن عناية الرسول (ص) الخاصة به، وسعيه إلى إعداده إعداداً قياديّاً وعلميّاً..كل ذلك وغيره، يظهر بوضوح، أن الإمام علي (ع) قد كان المرشح الأول والأهم لخلافة الرسول (ص).

وبالتالي، لا نستطيع أن نعزل هذا النص عن هذه السياقات وتلك الحيثيات، التي تسهم في تكوين دلالته وانتاج معناه.

3. ظروف النص:[2] والمقصود بها الظروف الاجتماعية والسياسية والتاريخية التي صدر فيها النص، وأتى محاكياً لها، وغير منفصم عنها.

---

1- على سبيل المثال أنظر: الشهرستاني، الملل والنحل، دار المعرفة، بيروت، مج 1، ص 160؛ أيضاً: الحنفي علي محمد فتح الدين، فلك النجاة في الإمامة والصلاة، مؤسسة دار الإسلام، لندن، 1997 م، ط2، ص 107.

2- سوف يتم التركيز في هذا العنوان على تلك الظروف ذات العلاقة بالإجتماع السياسي. للمزيد راجع: شقير محمد، في فلسفة الإمامة والاختيار الديني، مجلة صوت الجامعة، لبنان، العدد الثاني، 2011 م، صص 91-105.

وهنا يمكن أن نشير إلى أهم تلك الظروف:

أولا: قرب رحيل الرسول(ص) القائد: من المعلوم أن الرسول (ص) كان قد نعى نفسه أكثر من مرة قبل واقعة الغدير، وكذلك في نص الغدير، وكان قد أخبر المسلمين بقرب انتقاله من هذه الدنيا؛ مع ما سوف يؤدي إليه ذلك من فراغ قيادي كبير، لا شبيه له في حياة الأمة، حيث لم تشهد قبله ولن تشهد بعده من مثيل. وهو أعظم وأخطر تحدٍّ تعيشه الأمة ويمرّ به الإجتماع الاسلامي منذ تكوّنه، حيث من الممكن أن يؤدّي الى تفجير ذلك الاجتماع من داخله، كما يمكن أن يؤدي إلى توليد أزمات، وإيجاد تصدعات في جسد الأمة، تبقى إلى أمد الدهر، وما دار الليل والنهار.

وعليه فإن نص الغدير قد جاء في هذا الإطار، عندما كانت الأمة مشرفة بعد أيام قلائل على أخطر حدث يمر في حياتها، يتمثل في وفاة رسول الله (ص)، قائد الأمة، وحاكم الدولة، وما قد يؤدي إليه ذلك من تداعيات خطيرة، خصوصاً إذا ما لحظنا بقية الظروف والاعتبارات التالية.

ثانياً: بيئة الإجتماع الإسلامي وميزاته: لن يكون من الصحيح أن تقدم صورة جد مثالية للمجتمع الإسلامي في عهد الرسول (ص)، لأن من يعود إلى القرآن الكريم والنصوص الإسلامية المختلفة، يجد واقعاً مغايراً لما يصوره البعض.

لقد كان المجتمع الإسلامي قريب عهد بالجاهلية، ولم يستطع إلى حينه التخلص من جميع الرواسب الجاهلية وعصبياتها، كما كان يختزن العديد من التيارات والاتجهات المختلفة قبلياً وعشائرياً وجغرافياً... وكان يحتوي على العديد من الانقسامات، التي قد تجد ترجمتها السياسية وغير السياسية، إذا ما سنحت لها الفرصة المناسبة لذلك، وخصوصاً مع وجود المنافقين، وغير المنافقين، ممن يشكل دوره تهديداً حقيقياً للدولة الاسلامية وتجربتها الحديثة.

لقد كان ذلك المجتمع يعلي من شأن الرئاسة ويتسابق إليها، وخصوصاً بعد أن أخذت الرئاسة آنذاك هالتها وقدسيتها، عندما شغل الرسول (ص) موقع تلك القيادة والرئاسة.

هذا وقد كشف لاحق الأيام عن مدى النزوع إلى السلطة لدى ذلك المجتمع، والاستعداد لركوب أعنف الخيارات، وخوض أدمى الحروب من أجل الوصول إليها، أو إلى شيء منها.

ولذلك جاء نص الغدير محاكياً لطبيعة ذلك المجتمع وكوامنه، ساعياً إلى تقديم البلاغ، الذي يعمل على الحيلولة دون تفجر تلك التناقضات الاجتماعية والسياسية، وعاملاً على منع حصول انقلاب على الأعقاب، يؤسس لانحدار التجربة الاسلامية وتقهقرها، بمعزل عن مدى تجاوب الأمة وتياراتها مع هذا البلاغ وتلك القرارات، ومدى استعدادها للعمل به وتنفيذه. إذ إن المطلوب هو أن يكون البلاغ أو القرار منسجماً مع القيم والمبادئ الدينية الاسلامية وعقلانيتها، ولوازم الحكمة فيها، ومنطق الاجتماع الديني الاسلامي لديها؛ أما أن تستجيب الأمة أو لا تستجيب، فهذا أمر آخر.

ثالثاً: مستقبل الأمة شواهد ونصوص: إن مما ينبغي الوقوف عنده ملياً، هو وجود رؤية واضحة لدى الرسول (ص) لما سوف يحصل للأمة الإسلامية من فتن وانقسامات وتصدعات خطيرة تصيبها، وحروب تقع بين طوائفها وأحزابها؛ وما يدل عليه نصوص عديدة صدرت عن رسول الله (ص)، تبين حال الأمة في قادم الأيام ولاحق الدهر، وما سوف يصيبها من رزايا وفتن، ثم لتثبت الوقائع والحوادث لاحقاً جميع ما نقل عن رسول الله (ص)، فيما يرتبط بهذا الأمر.

وهنا سوف يكون السؤال مبرراً، أنه امام معرفة الرسول(ص) بما سوف يؤول إليه أمر أمته، وما سوف يصيبها؛ هل يعقل أن يقف غير مبالٍ أمام ذلك، في قضية قد تؤدي إلى تفجر جميع الانقسامات، وإيجاد صدوع لا تنتهي في جسد الأمة؛ وهي قضية الخلافة ومستقبل السلطة، مع أنّ مجمل المبادرات الّتي قام بها بعض الخلفاء من بعده فيما يرتبط بهذا الموضوع، كانت تبرّر بالخوف من الفتنة، و الحرص على الأمّة و ما شابه؟

وهل أن الرّسول الرحيم، الرؤوف بأمته، الحريص عليها وعلى مستقبلها، يمكن أن يكون لا مبالياً تجاه أخطر استحقاق تواجهه الأمة في حياتها، و يشكّل أكبر تهديد لذاك المستقبل؟

وهل يمكن بالتالي أن يكون نص الغدير معزولاً عن المخاوف المحيطة بمستقبل الأمة، وما سوف يصيبها في قادم الأيام ولواحق الزمان، وخصوصاً أن هذا النص قد صدر في آخر لقاء عام للرسول (ص) بأمته بعد موسم الحج، وفي آخر أيام حياته، حيث لا توجد فرصة أهم وأفضل من تلك الفرصة لمعالجة قضية انتقال السلطة، ومنع تحولها إلى صاعق يفجر الخلاف داخل الأمة، ويؤدي إلى نشوء تصدعات خطيرة فيها، وما يرافق ذلك من فتن وحروب لا تبقي ولا تذر؟[1]

رابعاً: التجربة الإسلامية تجربة وليدة: بمعنى أن هذا النموذج الذي قدمه رسول الله (ص) ليس نموذجاً سياسياً بحتاً، بل هو نموذج ذو أبعاد مختلفة: اجتماعية، حضارية، تشريعية، سياسية قيمية، أخلاقية... وبالتالي فإن الأهم من تأسيس هذا النموذج، هو استمراره صحيحاً سليماً، متماهياً مع المعاني الحقة للدين والاسلام،في مقابل ما سوف يواجهه من عوامل ومستجدات، هي نتيجة طبيعية للتفاعل الحضاري، ولما تستولده عجلة التطور الاجتماعي وحوداث الزمان من قضايا و تحدّيات.

وعلى ما تقدم، هل يمكن أن يكون الرسول (ص) غير معني بمستقبل النموذج الذي قدّم، واستمراره منسجماً مع المعاني الحقة للدين؟ وهل يمكن أن يكون غير معني بتوفير الضمانات، واتّخاذ الإجراءات، التي تؤسس لسلامة ذلك النموذج، واستمراره صحيحاً في قادم الأيام؟

وإذا كانت قيادة الأمة والدولة، هي العامل الحاسم – لأنها تجمع القيادتين الدينية والسياسية– في سلامة أو عدم سلامة ذلك النموذج؛ في استمراره مستقيماً أو انحرافه؛ في بقائه منسجماً مع المعاني الحقة للدين، أو صيرورته مجافياً لها مفترقاً عنها؛ في تحقيقه لأهداف الأطروحة الإسلامية وغاياتها وقيمها على مستوى الاجتماع العام، أو فشله في ذلك؛

---

1–هذا المنطق في مقاربة تلك الموضوعات ليس ناشئاً من بعد فكري خاص، وإنما يشمل كل من التزم البعد العقلاني والعلمي والموضوعية في ذلك. انظر: صبحي أحمد محمود، نظرية الإمامة، ص100–101؛ عن: القزويني علاء الدين، عقائد الشيعة وأهل السنة في أصول الدين، 1996 م، صص 224–226.

فهل سيكون عندها من الحكمة بمكان، ألا يعنى رسول الله (ص) بموضوع خلافته، وهو أمام موقف قد يؤدي إهمال قضية الخلافة فيه إلى الإطاحة بالنموذج الذي قدّم، وسلامته واستمراره صحيحاً مستقيماً في الأمة وبين الناس؟

ألم يكن رسول الله (ص) مدركاً لهذا الأمر مبكراً، ألم يعمد إلى إعداد وتهيئة القيادة الرشيدة والصالحة لتحمل تلك المسؤولية من بعده؟ ألم يعرفنا بتلك القيادة؟ ألم يستفد من الفرصة الأفضل له، حيث اجتمع عدد كبير جداً من المسلمين بعد حجة الوداع في غدير خم*، ليعرفنا بتلك القيادة؟ هل يمكن أن يكون نص الغدير غافلاً عن تلك القضية رغم خطورتها وأهميتها؟ حيث إن إهمال النص لتلك القضية، قد يؤدي إلى وصول قيادة قد تطيح بذلك النموذج ونقائه، ولو في بعض مفاصله أو مجمل مبانيه؟

إنه لن يكون من الحكمة بمكان أن يكون نص الغدير غافلاً عن خطورة هذا الجانب، ولن يكون من الصحيح عندها النظر إلى نص الغدير بمعزل عن هذا الجانب الخطير من حياة الأمة وسلامة نموذجها، واستمرار هذا النّموذج متماهياً مع المعاني الحقة والصحيحة للدين وقيمه و أهدافه[1].

خامساً: انتقال السلطة: الآلية المجهولة: بما أن الرسول (ص) قد كان قائداً وحاكماً للدولة الإسلامية الوليدة، وبما أنه لا بد من حاكم يخلف رسول الله (ص) في قيادته للدولة والأمة، وبما أن مسألة السلطة (الرئاسة) هي من المسائل الخطيرة والمهمة جداً على مستوى قيادة الدولة والنموذج الاسلامي، وعلى مستوى الوعي الجمعي والثقافة السياسية – المجتمعية آنذاك؛ فهل يمكن – والحال هذا – أن يكون نص الغدير غافلاً عن هذا الموضوع الخطير، وهو موضوع انتقال السلطة، وجميع ما يتصل به من كيفية، وشروط، وحدود، وضوابط وآلية...؟

---

1- للتوسع في هذا الموضوع وغيره يرجع إلى: شقير محمد، في فلسفة الإمامة الدينية ومنطق الاجتماع المعرفي الديني، مجلة صوت الجامعة، لبنان، العدد الثالث، 2012 م، صص 55-69.

وهل يمكن أن يكون الرسول (ص) غير معني بهذا الأمر، الذي هو غاية في الأهمية والخطورة، من ناحية ما يترتب عليه من نتائج وتداعيات كبيرة ومهمة سواءً على المستوى الديني أو السياسي[1]؟

هنا قد لا يخلو الأمر من احتمالين: وهو إما أن يبادر النبي بنفسه إلى التعيين (بأمر من الله تعالى)–وهو ما يذهب إليه المسلمون الشيعة–؟ وإما أن يبادر إلى تحديد آلية انتقال السلطة والخلافة بعده، ويترك الأمر إلى الأمة لتنفيذ هذه الآلية، وممارسة انتقال السلطة بنفسها، بناءً على ما حدده وبيّنه؛ لأن الاحتمال الثالث، وهو أنّ الرّسول(ص) قد أهمل بالمطلق موضوع الخلافة، وقضية انتقال السلطة، مع الحساسية البالغة لهذا الموضوع، والتداعيات الخطيرة التي تترتب على اهماله؛ هذا الإحتمال لا يصدر عن عاقل عادي، فكيف بالنبي الرحيم، الرؤوف الحكيم، وهو سيد عقلاء البشر، وأفضلهم عقلاً وأصوبهم رأياً، هذا و تشهد سيرة الخلفاء الّذين أتوا من بعده على ما نقول، حيث إنّهم لم يهملوا هذا الموضوع، و إنّما عنوا به كل العناية[2].

ولو أراد رسول الله (ص) أن يترك قضية انتقال السلطة والخلافة بعده إلى الأمة، لوجب أن يبين لهم آلية انتقال السلطة، وجميع ما يتصل بها من شروط، وحدود، وضوابط، وأحكام...حتى لا يبقى أمر مبهم، أو قضية خافية، يمكن أن تكون سبباً لتفجر الخلافات، وإيجاد تصدعات في الأمة...؛ ولوجب عندها أن يستفاد من واقعة الغدير –لأهميتها وخصوصيتها– للإضاءة على قضية انتقال السلطة، وجميع ما يتصل بها من أحكام، وشروط و... –تأكيداً أو تأسيساً–؛ ولكن أياً من ذلك لم يحصل في واقعة الغدير، ولا قبلها، ولا بعدها.

---

1–ألم يعمد الخلفاء الّذين أتوا بعد الرّسول(ص) الى تحديد آليّة انتقال السّلطة، كالاستخلاف، أو الشّورى السّداسيّة، مع بيان جميع ما يتّصل بهذه الشّورى من ضوابط و غيرها؛ فكيف يسوغ القول إن من سوى النبي(ص) قد عنى بقضيّة انتقال السّلطة، لمبرّرات ذكرت في محلّها,في حين يقال إن النّبي(ص) قد أهمل هذا الموضوع بالمطلق و لم يعره أي اهتمام؟!

2–ألم يثبت لاحق الأيام صوابية هذا الأمر، حتى قيل:"وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية، مثلما سلّ على الإمامة في كل زمان": الشهرستاني، في الملل والنحل، م س، ج1، ص24.

أما دعوى الشورى، فلا يمكن أن تكون جواباً صحيحاً على ما تقدم، لأنه لو كانت هي الآلية المعتمدة، لوجب أن يبين الرسول(ص) جميع ما يرتبط بها من شروط، وحدود، وأحكام، وضوابط و...ولكن كل ذلك لم يحصل، فضلاً عن نقاشات اخرى ترد على موضوع الشورى، لسنا في وارد ذكرها.

والملفت للنظر هنا، أنّه عندما نأتي إلى نص الغدير، نجد بأنه لم يتعرض إلا لمعنى واحد، وهو ولاية الإمام علي (ع)، وهو–أي الرسول(ص)–في تلك الواقعة اليتيمة، ذات الأهمية البالغة، حيث الاجتماع الأخير لذلك الحشد الكبير جدّاً ، لجميع المسلمين من جميع الأمصار والبلدان؛ لم يُشر من قريب أو بعيد إلى أي شخص في موضوع خلافته، أو لم يتحدّث في أية آلية لانتقال السلطة، سوى ما جاء عنه في موضوع ولاية الإمام علي (ع)، وأنه مولى من كان رسول الله (ص) مولى له؛ ألا يمكن أن يشكل عندها عدم بيانه أية أطروحة واضحة ومفصلة، فيما يرتبط بقضية انتقال السلطة، قرينة إضافية على أنه ما أراد من نص الغدير، سوى تعيين الإمام علي (ع) خليفة له؟

4. حيثيات الواقعة: بمعنى أن كيفية حصول واقعة الغدير، قد تساعد على تأكيد دلالة ما فيما يرتبط بالنص، بحيث أن من يتعقب مشهدية الواقعة وتفاصيلها، تتشكل لديه قناعة واضحة، بأن ما كان يعمل على بيانه وإبلاغه للناس آنذاك.

ليس بالأمر العادي أو البسيط، بل هو أمر في غاية الأهمية؛ ولنلتفت إلى النقاط التالية[1]:

أ. إن هذه الواقعة قد جاءت بعد موسم الحج مباشرة، حيث النفوس قد تكون مهيأة أكثر معنوياً وروحياً لتقبّل ذلك البلاغ وأهميته.

ب. إن تلك الحجة هي حجة الوداع، حيث لا لقاء عام للمسلمين برسول الله (ص) بعد ذلك اللقاء بمستواه، أي إنه اللقاء الأخير لعموم المسلمين بالرسول (ص).

---

1– في مجمل هذه النقاط وغيرها راجع: العسكري السيد مرتضى، معالم المدرستين، م س، صص 490–501؛ السبحاني الشيخ جعفر، بحوث في الملل والنحل، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، 1415 هـ ق، ط2، مج6، صص 46–54؛ الميلاني السيد علي الحسيني، الإمامة في أهم الكتب الكلامية. وعقيدة الشيعة الإمامية، منشورات الشريف الرضي، قم، 1413 هـ ق، ط1، صص209–214.

ت. لقد جرى ذلك اللقاء قبل آخر لحظة وداع وفراق لرسول الله (ص)، حيث يصحب تلك اللحظة تفاعل وجداني خاص، قد يكون عاملاً مساعداً على تقبل البلاغ.

ث. لقد كان الوقت وقت الظهيرة، وكان شديد الحر والقيظ، ومع ذلك أصرّ رسول الله (ص) على الحدث، وابلاغ ما أُنزل إليه من ربه.

ج. الذي حصل أنّ بعض القوافل كانت قد شقت طريقها إلى بلدانها، لكن الرسول (ص) أرسل خلفها لتشهد تلك الواقعة، وانتظر من لم يصل بعد منها، لتكون كل تلك الأمصار والبلدان على مرأى ومسمع بها.

ح. لقد كان ذلك الحشد من أكبر الحشود للمسلمين حتى تاريخه، حيث ذكرت بعض النصوص التاريخية أنه بلغ مائة وعشرين ألفاً من المسلمين.

خ. طلب الرسول (ص) أن يصنع له منبر، وصعد عليه، حتى يسمعه ويراه جميع المسلمين، وأصعد علياً معه، حتى يرى المسلمون بأعينهم من هو المعني بهذا البلاغ.

د. رفع الرسول (ص) بيده الشريفة يد علي (ع) حتى بان بياض إبطيهما، من أجل تقديم مشهدية جسدية، تؤكد على المعنى أكثر، وتحفر في الذهن صورة يصعب نسيانها، أو تجاوز دلالاتها.

ذ. لقد نعى الرسول (ص) نفسه في بداية كلامه، وأبلغ المسلمين بقرب رحيله عن هذه الدنيا، في إشارة إلى الفراغ القيادي الذي سوف يحصل نتيجة لهذا الرحيل، وليؤسس بذلك للبلاغ الذي أراد بيانه لجميع المسلمين، فيمن سوف يملأ هذا الفراغ القيادي، ويكون الخليفة من بعده.

ر. لقد كرر الرسول (ص) المقدمة* التي أراد ترتيب النتيجة عليها "ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم" وأقر المسلمين عليها، تمهيداً لتقبلهم بشكل أفضل البلاغ الذي أراد إيصاله، لأهميته وخطورته.

---

* وإن بعبارة مختلفة.

ز. صرّح الرسول (ص) في بلاغه بأولويته على المؤمنين "ألست أولى..." ليصل إلى ولاية الإمام علي (ع) عليهم، وليربط ما بين الولايتين "فمن كنت مولاه فعلي مولاه"، حيث لا يمكن لهذا الربط إلا أن يكون قرينة، على أن ولاية الإمام علي (ع)، ليست إلا من سنخ ولاية الرسول (ص) وامتداداً لها.

س. قام الرسول (ص) بتتويج الإمام علي (ع) عمامته الخاصة المعروفة ب"السحاب"، بما يحمل ذلك من دلالة على أنّه قلّده المنصب الذي له.

ش. الذي حصل هو أنه بعد إتمام الرسول (ص) لبلاغه، فإن جموع المسلمين احتشدت على علي (ع) تهنئه بأمرة المؤمنين، وهي تردد قولها "بخٍ بخٍ لك يا علي، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة".

وعلى ما تقدم هل يمكن لأحد أن يقتنع، بأن تلك المراسم والاجراءات، هي من أجل بيان بعض ما أدعي من محبة علي (ع) وغيره؟

هل تنسجم هذه الترتيبات مع دعاوى بعض المتكلمين وغيرهم، في أن الرسول (ص) أراد التأكيد على عدم بغض علي (ع) وغيره؟ أم أنها تؤسس لأمر شديد الأهمية وبالغ الخطورة، وتعبّر عنه؛ أمر يتصل بما قدّم به الرسول (ص) من حديث حول وفاته وأولويته على المؤمنين، بما يشكل ذلك من قرائن تدل على أن موضوع البلاغ، يتصل فقط وفقط بقضية الخلافة، لأنه لا أخطر من تلك القضية في تلك الواقعة، ولا أهم من تلك القضية في تلك الظروف، ولا يوجد أنسب من تلك الفرصة للحديث في تلك القضية، ولن يكون من الحكمة بمكان أن تمر تلك المناسبة، ويتفرق المسلمون إلى بلدانهم، دون أن يحسم أمر الخلافة، ويُعرف من هو الخليفة بعد الرسول (ص)؛ بل إن جميع تلك المراسم والإجراءات والقرائن تدل على أمر واحد، وهو أن الرسول (ص) كان يريد الاستفادة من تلك المناسبة – الفرصة، لإبلاغ المسلمين بالخليفة من بعده، ألا وهو الإمام علي (ع) بن ابي طالب، وهو ما قد حصل فعلاً في تلك الواقعة.

5. حركة التاريخ ومستقبل الأحداث: إن المتتبع لحركة التاريخ من ناحية دعوات الأنبياء والرّسل، يلحظ بوضوح وجود عوامل التفرقة والإنقسام والتنازع والاختلاف والانحراف والانقلاب...لدى أمة كل من أولئك الأنبياء و الرّسل. وعادة ما تكون هذه العوامل مضبوطة ومحصورة إلى حدّ بعيد

أثناء وجود الرّسول(ص)، لتنفجر بشكل أكبر بعد وفاته، مما يؤدي إلى بروز الخلافات، ونشوب المنازعات، وحدوث الفرق، وتعدد الاتجاهات في الأمة الواحدة، ولدى الدين الواحد.

لقد حدث هذا الأمر لدى أمم الأنبياء الذين جاؤوا قبل رسول الله (ص)، مما أدى إلى تشظيها، وانقسامها إلى العديد من الفرق، والاتجاهات الدينية والمذهبية، مع ما صحب ذلك من تداعيات اجتماعية، وسياسية، وديموغرافية، وفتن، وحروب و منازعات تسيء إلى البشر و الحجر و الدّين.

هذا ولن يكون الاجتماع الاسلامي، وأمة النبي (ص) الخاتم استثناءً من حركة التاريخ هذه، ولا من تداعياتها، بل إن كثيراً من النصوص التي وردت عن رسول الله (ص)، كانت تفصح عن أن ما حصل في بقية الأمم السابقة، سوف يحصل لدى هذه الأمة "حذو القذة بالقذة". كما أن مستقبل الأحداث وجميع ما حصل تالياً في الأمة، أكد من دون أي شك، بأن مستقبل أمة النبي (ص) الخاتم كان نسخة مشابهة لما كان عليه ماضي أمم من سبقه من الأنبياء، وأنه كان مترقباً أن يعيد التاريخ الديني نفسه، لكن هذه المرة في أمة الاسلام وخاتم الأنبياء(ص).[1]

وعلى ما تقدم، إن كانت الخلافة وقيادة الأمة من أهم الضمانات، التي يقتضي حسن التعامل معها، والاستفادة منها، إلى الحؤول دون حصول ما يخشى حصوله من تداعيات ونتائج – طبعاً، فيما لو عملت الأمة بمقتضيات النص وانصاعت له– في حين أن إهمال موضوع الخلافة وانتقال السلطة، قد يتحول إلى سبب أساس لتفجّر الخلافات، ونشوب النزاعات، وانقسام الأمة..؛ فهل يعقل والحال هذا، أن يهمل الرسول (ص) قضية خلافته، مع ما لذلك الإهمال من تلك النتائج، والتداعيات التي ذكرنا؟

وهل يصح لنا أن نفهم نص الغدير بمعزل عن تلك الحيثيات والاعتبارات، التي لا يمكن إقصاؤها، إذا ما أردنا تلقي دلالة نص الغدير، ومحاولة فهمه، متموضعاً في بيئته واجتماعه الديني والسياسي؟

---

1–النصوص في هذا المعنى كثيرة، فمن باب المثال ما ورد عن رسول الله (ص) :" ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة..." الحر العاملي، وسائل الشيعة، دار التراث العربي، بيروت، ج18، ص 31.

**ج. تلخيص واستنتاج:**

نحن إذن أمام نصّ، صدر عن الرسول محمد (ص)، والذي كان بالإضافة إلى رسالته قائداً للأمة وحاكماً للدولة، و بحقّ شخصيّة كانت تعدّ المرشّح الأوّل للخلافة، في ظرف أشرف على حصول فراغ قيادي كبير نتيجة وفاة الرسول (ص) القائد والحاكم، حيث يمكن أن يتحوّل الفراغ في السّلطة إلى صاعق يشعل فتيل الخلاف و النّزاع، في مجتمع هو قريب عهد بالجاهلية، ما زالت تقيم فيه الانقسامات القبلية والعصبيات العشائرية، وتتسابق فيه مختلف الفئات الاجتماعية إلى الرئاسة والزعامة، و تتطلع إليها بكثير من الشّغف. في مجتمع توجد فيه اتجاهات تهدد بالعمق هذه "التجربة الاسلامية" الوليدة من المنافقين وغيرهم، من أصحاب الدّنيا، و الطّامعين في الرّئاسة، ممن يتربص سوءاً بهذه التجربة، والنموذج الذي تُقدّم.

لقد صدر هذا النص من قائد، كان كل سلوكه السياسي والقيادي يقوم على عدم ترك أي فراغ في القيادة، لدى مغادرته لمركز حكمه (المدينة)، أو ارساله الجيوش والسرايا، بل كان الرسول (ص) يظهر عناية كبيرة بهذا الموضوع، أي موضوع الخلافة والإمرة*.

لقد صدر هذا النص في مجتمع، لم يكن لديه أية تجربة سابقة، يمكن أن تحتذى على مستوى انتقال السلطة واختيار الخليفة، ولم يكن قد صدر من الرّسول أية اطروحة أخرى، تتحدث بالتفصيل في آلية انتقال السلطة واختيار الخليفة من بعده، لأنه لو كانت الشورى هي الآلية المعتمدة، لوجب أن يبيّن الرّسول(ص)جميع ما يتصل بها،من أحكام، وشروط، وحدود، وما سوى ذلك، وهذا لم يحصل.

لقد صدر هذا النص في وقت كانت كل التجارب الدينية السابقة تفصح عن تصدع الأمة بعد وفاة نبيها، وانقسامها مذاهب شتّى، تتقاتل فيما بينها وتتصارع، ويكفر كل منها الآخر، حيث لن تكون أمة النبي (ص) الخاتم إستثناءً من ذلك؛ بل إن النصوص التي صدرت عن النبي (ص)، كانت تفصح عما كان ينتظر هذه الأمة من فتن وصراعات وخلافات، وأن مستقبلها سوف يكون مشابهاً لما جرت عليه بقية الأمم، إن لم يكن أسوأ.

---

*عندما أرسل الرّسول(ص) جيشاً إلى مؤتة قال: فلان على الجيش فإن قتل ففلان فإن قتل ففلان.(الأصفهاني أبو الفرج، مقاتل الطالبيين، مؤسّسة دار الكتاب للطّباعة والنّشر، قم، 1965م، ط2، ص6) ، فكيف بيدي الرّسول اهتمامه الشّديد بقيادة جيش صغير، ويقوم بنفسه بتحديد من يخلف القائد الأوّل في حال مقتله، و من يخلف الثّاني أيضاً، ثمّ يقال أنّه أهمل قيادة الأمّة بالمطلق، أليس في هذا تناقضاً.

لقد صدر هذا النص والأمّة أمام أخطر تحدٍّ على الإطلاق تواجهه في حياتها؛ تحدٍّ يمكن أن يتحول إلى عامل تصديع للأمة، وسبب تفجير للخلافات فيما بينها، و ما يؤدي إليه ذلك من إشعال للفتن والمنازعات والحروب بين طوائفها إلى يوم القيامة، وما كرّ الجديدان، فيما لو لم يعمل على معالجة موضوع الخلافة ومستقبل الرئاسة ، واتخاذ القرار الصحيح بشأنه.

لقد صدر هذا النص بعد حجة الوداع مباشرة، وفي ذلك الحشد الكبير للمسلمين بعد الحج، وقبيل مغادرة تلك الوفود من الحجيج كلٍّ إلى بلده ومصره، وكان هناك إصرار من الرسول (ص) على انتظار من لم يكن قد وصل بعد، وارجاع من كان قد شرع بسفره، وكان الطقس حاراً جداً، فأمر الرسول (ص) فصنعوا له منبراً، فصعد عليه وأصعد علياً معه، وألبسه عمامته السحاب، وأصر على جميع المسلمين بأن يسمعوا هذا البلاغ الجديد، ليرفع يد علي، حتى بان بياض إبطيهما، ليصدح بقوله: ".. من كنت مولاه فعلي مولاه..." حيث استخدم تعبير "مولى" والذي هو بمعنى الأولى، أي أن علياً قد أصبح الأولى بشؤون المؤمنين وأمورهم الدينية والدنيوية، ليأتي الجميع مهنئاً علياً بهذه الولاية، بعد أن انتهت تلك المراسم والإجراءات ذات الدلالة.

أمام جميع هذه الاعتبارات والقرائن، ماذا يمكن أن يفهم من هذا النص؟ وما الذي يمكن أن يكون قد أراده النبي (ص) في هذه الظّروف الاستثنائيّة و الفرصة الاستثنائية، والحشد الاستثنائي، والمراسم الخاصة؟ هل يمكن لمنصف أن يتصور أن النبي (ص) قد أراد معنى آخر غير الخلافة، أو أنه قصد شيئاً آخر غير إمرة المؤمنين؟

هل يمكن للرسول (ص) الحكيم الرحيم الرؤوف، الحريص على هذه الأمة ومستقبلها، العارف بما فيها وما ينتظرها من مخاطر وفتنٍ ومآسٍ، أن يهمل أمر خلافته، أو أن يغفل عن قيادة الأمة والنموذج المستقيم الّذي يجب أن يستمرّ من بعده، ولا يستفيد من تلك الفرصة الاستثنائية لحسم قضية الخلافة من بعده؟

نعم، إن قيل بأن النبي (ص) لو أراد من بلاغه أن يعين علياً خليفة من بعده؛ لكانت الأمة قد مكنته من خلافته؛ نجيب بأن هذا اسقاط أيديولوجي على التّاريخ، يقوم على القول بعصمة الأمّة. مع أنّ التّاريخ الدّيني مليء بالكثير من الحوادث، الّتي تشهد على مخالفة الأمم لأنبيائها في أمور أساسيّة و كبيرة(يراجع تاريخ بني إسرائيل مع موسى(ع)). هذا ولم يكن بعيداً ما حدث في أحُد، و فرار جميع المسلمين(حوالي 700مقاتل) عن الرّسول(ص)،سوى عددٍ لا يتجاوز أصابع اليدين أو أكثر

بقليل، و تركه يواجه مصيره و عصيانهم له، و مطالبة البعض منهم بالعودة إلى قومهم (مشركي قريش)، و تقديم طرح يقضي بتوسيط بعض الوسطاء ليأمنوا على أنفسهم من قريش، بل تشكيك من شكك في نبوّة النّبي(ص)، بأنّه لو كان نبيّاً ما قتل، حتّى نزل قوله تعالى:<< وما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرّسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً و سيجزي الله الشّاكرين>>[1]

فإذا كان هذا الإنقلاب قد حصل في مقابل اشاعة حول مقتل الرّسول(ص)، و هم في مرحلة التّوهّج الايديولوجي(السّنة الثالّثة من الهجرة) و في ذروة الحماس الجهادي(في ساحة المعركة)، و ممّن يفترض أن يكونوا صفوة القوم؛ فهل سيكون مستبعداً أن يحصل هذا الإنقلاب بعد وفاة الرّسول(ص)، و خصوصاً عندما يكون الأمر مرتبطاً بقضيّة الرّئاسة و زعامة الأمّة[2]؟

وإن قيل بأنه إذا كان تعيين الخليفة يسهم في العصمة من الفتن والخلافات والصراعات... فلماذا قد حصل كل ما حصل في التاريخ الإسلامي، رغم دعواكم بأن الرسول (ص) قد عين علياً خليفة من بعده؟ نجيب بأن حصول تلك النتائج مشروط بتمكين الأمة له أمر خلافته، أما إن لم توفر الأمة هذا الشرط، فإن تلك النتائج من العصمة من الفتن والخلافات..لا تترتب على مجرد التعيين.

وإن قيل بأن الرسول إن كان يعلم بأن الأمة لن تمكن علياً من خلافته، فلماذا إذن عينه، ألا يكون التعيين عندها لغواً؟ نجيب بأنه في هذا التعيين – كما في كل التكاليف– يبين الرسول (ص) لهم خيرهم ومصلحتهم، وما هو واجبهم وتكليفهم، فهم إن استجابوا لله وللرسول (ص) فقد أصابوا، وإن لم يستجيبوا، فهنا يكون اللوم عليهم، والعصيان قد صدر منهم.

---

1–آل عمران، 144؛ راجع في تفاصيل ذلك الحدث: مرتضى السيّد جعفر، الصّحيح من سيرة النّبي الأعظم دار السّيرة، بيروت، ج6، صص 71–315؛ القمنى سيّد محمود، حروب دولة الرّسول، مدبولي الصّغير، 1996م، ط2، ج1،صص119–163؛ الطّباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1983م، ط5، ج4، صص25–77.

2–عندما نزل قوله تعالى بعد معركة أحد<< منكم من يريد الدّنيا ومنكم من يريد الآخرة>>(آل عمران،152) قال ابن مسعود:<< ما كنت أدري أنّ أحداً من أصحاب رسول الله يريد الدّنيا، حتّى نزلت فينا هذه الآية يوم أحد>>(الطبرسي، مجمع البيان، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، 1992م،ط1،ج1،ص657).

فإذا كانت الغنائم يوم أحد سبباً لعصيان الرّسول(ص) وصولاً إلى الانقلاب على الأعقاب، ألن تكون الخلافة و السّلطة من بعده سبباً لعصيانه وصولاً إلى الانقلاب؟ وهل من يريد الدّنيا عندما كانت مجرد غنيمة في يوم حرب ، سوف يزهد فيها عندما تصبح رئاسة في يوم اختلاف؟

وعندها لا يمكن لأحد أن يلوم النبي (ص)، أو يتهمه بما هو خلاف الحكمة، أو العقلانية، أو الحرص على أمته، أو الرأفة بها، أو الرحمة لها؛وعليه فإن نص الغدير الذي ذكرنا، يدل على كلٍّ من الإمامتين الدينية والسياسية، وهذه الدلالة هي دلالة لفظية، نستشفها من معاينة النص، حيث تحدث رسول الله (ص) في الثقلين: كتاب الله والعترة أهل البيت (ع)، والالتزام بهما، بما يعبّر عن الإمامة الدّينيّة، ثم انتقل للحديث في ولاية الإمام علي (ع)، بما يعبّر عن الإمامة السّياسيّة.

أما الدلالة الإلتزامية – من حيث أنه لم يكن من فصل آنذاك بين الإمامة الدينية السياسية – فهي تعضد تلك الدلالة اللفظية، وتؤكدها.

أما القول بأنه يدل فقط على الإمامة الدينية؛ فيرد عليه بالتالي:

1. إن مجمل القرائن والظروف التي ذكرنا، تجعل دلالته على الإمامة السياسية أشد وضوحاً.
2. لم يكن آنذاك من فصل بين الإمامتين الدينية والسياسية على مستوى الاجتماع الديني والسياسي، حتى تصح دعوى التفكيك بينهما.
3. بناء على عدم الفصل، فإن إثبات أحداهما يعني بالتلازم (الخارجي) إثبات الأخرى.
4. إن من يعاين فلسفة الإمامة، يدرك أن الإمامة الدينية أساس للسياسية، بمعنى أن من تتوفر فيه الإمامة الدينية يصبح مهيأً لتولي السياسية وليس العكس.
5. إن مجمل المبررات التي تقتضي التعيين في الإمامة الدينية، هي نفسها تقتضي التعيين في السياسية، إذ إن صلاح الإمامة الدينية لا يكفي لوحده لتحقيق أهداف الدين ومقاصده في الإجتماع العام، من دون أن يكون هناك صلاح في الإمامة السياسية؛ بل إن مجمل التجارب تؤكد بأن الإمامة السياسية إذا فسدت، فإنها قادرة على التغول على الإمامة الدينية، أو تعطيل دورها، أو تشويه مضامينها، أو الحؤول دون تحقيق مجمل أهدافها ومراميها.

أ. د الشيخ محمد شقير
أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية